

((الفقيهُ التبريزي .. شلالُ الولاءِ وإعصارُ العِداءِ '))

بسم الله الرحمن الرحيم

يا ضلعَ فاطمَ من سيبدلُ نفسهُ لك فادياً إن قيلَ لم تتكسرِ
يا آهةَ الزهراءِ من يحمي الحمى إن قيلَ عندَ جدارك لم تُعصرِ
يا طفلها المقتولَ عصراً في الحشا من ينبري إن قيلَ لم تتعفرِ
ها قد هوى فهوى لواءُ دفاعهِ فعليه يا عينَ الولاءِ تفجري

لستُ هنا بصدد الحديث التحليلي عن شخصية المرجع الديني الكبير ، سماحة آية الله العظمى ، الشيخ التبريزي (طيب الله تربته ، ورزقنا شفاعته) ؛ فإن ذلك مما أعترف بعجزتي وقصوري عنه ، وإنما بصدد تجلية بعض اللحاحات التي لمحتها شخصياً في شخصيته المباركة ، والتي أجد من الضرورة تسجيلها وتخليدها ، إذ لعلَّ غيري قد يفوته ذكرها .

١ / اللوحة الأولى : قوة التوكل .

من المراتب العالية جداً التي لا يصل لها إلا القلة من الأولياء : مرتبة التوكل ، والتي تعني الاطمئنان التام ، والثقة الكاملة بذات الحق سبحانه وتعالى ، المنعكسة عن عمق المعرفة بالله ، وقوة اليقين بجمال أفعاله وصفاته .

إذ ليس يقوى العبد على الوصول إلى شامخ هذه المرتبة ، إلا فيما لو فَوَّضَ كل أموره إلى خالقه المدبر ، مع الاعتقاد الجازم بأنه تعالى لا يصنع بعبد إلا ما فيه صلاحه ، وترى العبد المتوكل في هذه المرتبة لا يعرف طريقاً إلى الأسباب الظاهرية التي قد توصله إلى مطلوبه ، لأنَّ قلبه قد ارتقى عنها مرتقىً بعيداً ، وصار بحيث لا يعرف سوى ربه سبباً .

^١ كُتِبَ هذا المقال قبل سنة تقريباً ، نزولاً عند طلب بعض الأحبة ، ولكن لم يكتب له أن يرى نور النشر إلا هذه السنة .

وهكذا كان شيخنا التبريزي (طيب الله تربته ، ورزقنا شفاعته) فإنه كان في عظمة توكله أعجوبةً من أعاجيب الزمان ، وإنَّ مواقفه الشريفة لأوضح شاهدٍ على ذلك ، وسوف أكتفي بعرض موقفٍ من مواقفه ، فإنَّ فيه الكفاية للدلالة على ما أريد الاستشهاد عليه .

وذلك عندما وقف موقفه التاريخي حول موجة التشكيك في مصائب السيدة الطاهرة ، المظلومة الشهيدة (أرواحنا لتراب نعلها الفداء) فإنه قد توالى عليه حينها الكثير من الرسائل والفاكسات المهددة والمتوعدة ، وهذا ما أوجب إثارة مشاعر الخوف والقلق عند ذويه وأصحابه ، فطلبوا منه مرافقته عند خروجه من محل تدريسه - حيث كان لا يرضى بذلك في سابق الزمان - غير أنه قد رفض ذلك أشدَّ الرفض ، وقال : إنَّ التي بذلتُ نفسي للدفاع عنها ، هي التي ستتكفل بحفظي .

وهكذا كان يخرج - كما كتنا نراه - من محل درسه في المسجد الأعظم ، بجوار حرم كريمة الأئمة ، وسليمة أهل العصمة (عليها أفضل الصلاة والتحية) ويتجه إلى بيته وحيداً ، من غير أن يرافقه أحد ، مع أنَّ تلك الفترة كانت من أصعب وأشد وأحرج الفترات التي عاشها (رضوان الله عليه) ، حيث كان فيها مُعرضاً للخطر والضرر في أي لحظة ، ولكنه مع ذلك لم يأبه ولم يعبأ ، وهذا إن كان يكشف عن شيء فهو يكشف عن عمق يقين المعرفة لديه ، وعظمة ثقته بالله وجنوده (عليهم السلام) .

٢ / اللوحة الثانية : الاهتمام بمأساة سيد الشهداء (عليه السلام) .

هُنالكَ ظاهرة عجيبة في مسيرة الآية التبريزي (قده) تشد المتأمل إليها ، وهي انشداؤه إلى مأساة سيد الشهداء الحسين (عليه السلام) ، وكان لهذا الانشداد

عدة مبرزات تجلّت في مواقفه وأقواله ، وسوف أكتفي بعرض أحدها ، لأنه كفيلا بإبراز تلك الحالة الولاية عنده من ناحية ، وإزالة الغبار عن بعض المفاهيم والتصورات المشوهة من ناحية أخرى .

والموقف الذي أُلحِتُ إليه ، هو : أن الشيخ التبريزي (قده) كان شديد الاهتمام بخطباء المنبر الحسيني الشريف ، وحريصاً جداً على تقديرهم وتبجيلهم ، ولم يكن هذا منه (طيب الله تربته) إلا لأجل أن الخطباء الكرام (أعزهم الله تعالى) هم أصوات الخطب الحسيني ، من خلال إثارتهم وعرضهم لمصائب سيد الشهداء الحسين (عليه السلام) والصفوة الطاهرة من أهله وصحبه .

فكان (قده) إذا عُرِفَ لديه خطيب بأنه من أهل المصيبة والإبكاء ، يتهج بذلك للغاية ، ويُظهر له تمام التقدير والاحترام ، وهو بهذا يريد أن يبيّن بأن قيمة المنبر الحسيني تكمن في مقدار ما يحتويه من إثارة معالم مظلومية أهل البيت (عليهم السلام) وإلهاب الوجدان العاطفي والولائي في نفوس من يجتمعون تحت ظلاله الوارفة .

ففي الوقت الذي تتعالى فيه الصرخات من هنا وهناك بانعدام دور المنبر الحسيني الشريف ، وأنه لا زال يسير في ركب التخلف ، وأن خطباء المنبر لا همّ لهم إلا استدرار الدمعة وإثارة المظلومية ، نجد أنّ المرجع الراحل (قده) يؤكد على خطأ مثل هذه المفاهيم ، من خلال تعظيمه لخطباء الدمعة الحسينية والصرخة الفاطمية ، والإشادة بهم والتنويه بفضلهم .

وهو بهذا يكرس المفاهيم المستقاة من روايات أهل البيت (عليهم السلام) ، فإنّ المتتبع لها يصل إلى أن الغاية المنشودة لهم (عليهم السلام) من وراء تأسيس المآتم الحسينية ، وتشبيد المنابر الشريفة ، هي : تأجيج الحالة العاطفية لأتباعهم ، من خلال عرض مصائبهم ومظلوميتهم ، إذ أنّ هذا كفيلا بمضاعفة عواطف الولاء

لهم (عليهم السلام) من ناحية ، وبتحريك مشاعر العداة تجاه أعدائهم وقتلتهم وغاصبي حقوقهم (عليهم أشد اللعنة والعذاب) من ناحيةٍ أخرى .

والشاهدُ على ما ذكرناه : " ما وردَ عن الإمام الصادق (عليه السلام) من أنه قال للفضيل : تجلسون وتتحدثون ؟ قال : نعم ، جعلتُ فداك ، قال : إن تلك المجالس أحبها ، فأحيوا أمرنا ، رحمَ الله من أحيأ أمرنا ، يا فضيل من ذكرنا أو دُكرنا عنده ، فخرج من عينه مثل جناح الذباب ، غفر الله له ذنوبه ، ولو كانت أكثر من زبد البحر " .

فإنه ليس يخفى على المتأمل في هذه الرواية الشريفة ، كيف أن الإمام (عليه السلام) قد اعتبر أن قيمة المجالس التي يجتمع فيها الشيعة ، إنما هي بذكر أهل البيت (عليهم السلام) الموجب لتحريك الدموع ليس إلا ، مما يعني أن الغاية المحورية التي ينشدها المعصومون (عليهم السلام) من وراء الدعوة إلى المآتم الحسينية الشريفة هي الدمعة أولاً وآخرأ .

ولا يعني هذا التقليل من أهمية الاستفادة من المنابر الحسينية الشريفة في إيصال معارف المعصومين (عليهم السلام) لشيعتهم ، ضرورةً أنّ الاستفادة من آية المنبر الشريف في نشر المعارف الإلهية ، هو الآخر من مصاديق إحياء أمر أهل البيت (عليهم السلام) ، حيث ورد عن الهروي أنه قال : سمعت الإمام الرضا (عليه السلام) يقول : رحم الله عبداً أحيأ أمرنا ، قلتُ : وكيف يحيي أمركم ؟ قال : يتعلم علومنا ويعلمها الناس .

فالاستفادة من المنبر الحسيني في نشر معارف الأئمة (عليهم السلام) لا ريب في رجحانها ، لاندراجها ضمن عمومات الإحياء ، غير أنه ليس هو الهدف الأساس الذي تكمن وراءه قيمة المنبر الحسيني وخطبائه ، بل القيمة كلها كامنة في مدى إثارة المنبر الحسيني لمظلومية المعصومين (عليهم السلام) ونشر مصائبهم

المفجعة ، وهذا هو ما كان يؤكد عليه الشيخ التبريزي (طيب الله ثراه) في تعامله مع خطباء الدمعة الحسينية .

٣ / اللوحة الثالثة : بذل النفس في تحصيل العلم .

كانت هنالك خصوصية يتمتع بها الشيخ التبريزي (قدس سره) لم ألاحظها عند غيره من معاصريه ، وهي خصوصية (قوة الاستحضار) بحيث كان ذهنه الشريف أشبه شيء بجهاز الحاسب الإلكتروني ، فما كنت تطرح عليه فرعاً من الفروع الفقهية ، إلا وكان ينحدر كأنه السيل ، فكانَ - في أغلب الأحيان - يستعرض متون الروايات المرتبطة بذلك الفرع ، بل ويستحضر حتى أسانيد الأخبار ، إلى جانب استحضاره لسائر الكبريات الأصولية المرتبطة بصغرياتهما ، وكأنك قد ضغطتَ - بسؤالك له - على زرٍ من أزرار جهاز الحاسوب ، ليوافيك بجميع المعلومات المتعلقة بسؤالك بكل تفصيل ودقة .

وقد أثارت قوة استحضاره هذه روح الفضول عندي ذات مرة ، فسألته وقلتُ له : مولانا ، كيف يستطيع الطالب أن يجعل قوة الاستحضار لديه بهذه المثابة ؟ فأجابني قائلاً : أيها السيد ، إنَّ هذا يحتاج إلى جهد كبير .

والأمر كما أفاده (عطر الله مثواه) إذ أن التوفر على قوة الاستحضار ، كما يتوقف من ناحية على نضج قوة الذاكرة لدى الطالب ، كذلك يحتاج إلى بذل الجهد المضاعف في تحصيل العلمين العظيمين : الفقه والأصول ، وما يرتبط بهما من معارف رجالية وحكومية وكلامية .

وإنَّ المستوى الشامخ الذي كان عليه شيخنا التبريزي (قدس سره) في قوة الاستحضار ، لمؤشر واضح على مدى الجهد الشديد الذي قد بذله (طابت في أعلى الجنة نفسه) في طريق تحصيل معارف المعصومين (عليهم السلام) حتى أصبح في طليعة فقهاء الطائفة المحقة في المرحلة المتأخرة .

وفي الختام : أجد نفسي متحيراً أمام شخصية هذا العَلم العملاق ، لذلك فإنني أستحث الخطأ من أجل إنهاء هذه السطور بشكل عاجل ، وإنه ليطيب لي أن أختمها بذكر نفحة من نفحات شيخنا المقدس في أواخر أيام حياته ، حيثُ كانَ في ظل الضعف والمرض - وهو على سرير الموت - لا يترنم لسانه المبارك بشيء من الكلام ، إلا بكلمة واحدة ، وهي كلمة : (يا زهراء) ، إذ أن هذا الاسم المقدس قد انتقشت حروفه على صفحة لسانه ، كما انتقشت على صفحات قلبه ، فصار لا ينتشي ولا يطرب ولا يلتذ إلا بذكر اسم السيدة الشهيدة الزهراء (أرواحُ جميع ما خلقَ اللهُ لها الفداء) لأنه ذاب عشقاً فيها ، وولاءاً لها ، والعاشق لا يلتذ إلا بذكر معشوقه ، فكانت حياته مع الزهراء ، ومماته مع الزهراء ، وسنراه - إن شاء الله تعالى - يوم القيامة ، وهو يحمل أكبر راية كُتِبَ عليها : (يا لثآرَات الزهراء) .

وإنا لله وإنا إليه راجعون

ضياء السيد عدنان الحَباز

قم المقدسة : ٣ / ١١ / ١٤٢٧ هـ